٢ ـ الاسلام فى أوربا الشرقية

فى أمسية الغزو المنغولى

للأستاذ المؤرخ أرنولد بوخهانووكز

بقلم الأستاذ على محمد سرطاوى

ويثنى بارتولد ثناء عاطرا على الدور المهم الذى قامت به الصوفية الاسلامية فى الدعاية لمبادىء الاسلام العظيمة بين الأتراك فيقول : « إن الصوفيين الذين ذهبوا لنشر مبادىء الدين الاسلامى بين الأتراك فى سهول الاستبس ، قد لاقوا من النجاح أكثر مما لاقاه أولئك الذين ذهبوا للمكان نفسه يبشرون بالأرثوذكسية المسيحية . ومع أن دعاة من الديانات الأخرى ، كالبوذية ، والمانكية ، والمسيحية ، قد جربوا القيام بدعايات واسعة قبل مجىء المسلمين ، إلا أن الدعاية الاسلامية قد لاقت نجاحا واسعا ، وخاصة بين الشعوب التى كانت قد عرفت الشىء الكثير عن الديانات الأخرى » (١) .

ويضيف المستشرق العظيم إلى ما سبق فى موضوع آخر من كتابه قوله : « وبسبب سيطرة الثقافة الاسلامية على تاريخ هذه الفترة ، فإن كل اتصال بين تعاليم الاسلام ، وتعاليم الديانات الأخرى : لم تنشأ عنه غير نتيجة واحدة ، هى امتداد ظل الاسلام والتمكين لنفسه فى آفاق جديدة . حتى فى الزمن الذى تسلط فيه القراقيتون (Qara – Qitays) ، أولئك المتعصبون الذين كانت الثقافة الصينية عميقة الجذور وبعيدة الغور فى نفوسهم ، والذين حاربوا الاسلام ولم يعتنقوه ، أخذت المناعة التى لديهم ضد هذا الدين تضعف كلما امتد ظلهم على المسلمين ، وراح الاسلام يمكن لنفسه فى سلطانهم ونفوسهم ؛ وهو وإن لم يكن انتشاره على نطاق واسع ، كما كان فى الفترة المغولية ، إلا أن مجرد الانتشار بين أولئك المتعصبين ، يعتبر من معجزات هذا الدين (٢) »

رأى بارتولد حول إسلام الكبشاك :

يبدو لنا أن النتيجة المنطقية لآراء بارتولد عن قوة الأغراء العجيبة الكامنة فى مبادىء الدين الإسلامى ، والتى لعبت دورا هاما فى إسلام الأتراك ، يمكن أن نكون كما يأتى : إن اعتناق عدد لا يستهان به من الخزر لمبادىء الإسلام ، قد أبعد بالتدريج كل صلة لهم بالديانات الأخرى بعد خضوعهم للكبشاك ، ثم اندماج هؤلاء المسلمين مع الغزاة بعد ذلك قد كانت نتيجته المباشرة عزل المنطقة التى حول مصب الفولجا عن جميع الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية ، ما عدا الديانة الإسلامية . ووجد الإسلام نفسه فى هذه المنطقة دون منافس من ديانات أخرى مدة قرنين ، فكان هذا الوقت كافيا لصنع المعجزة فى نفوس هؤلاء الكبشاك الوثنيين (٣) الذين عرفوا بعض الشىء عن هذا الدين عن طريق صلاتهم السابقة مع الخورزميين (Khoresm) . ومن تحصيل الحاصل أن يعتنق الكبشاك الإسلام فى مثل ظروف من هذا النوع . والتاريخ يعرف أمثلة كثيرة لشعوب رحل ، أخضعت السلطانها شعوبا مستقرة أكثر حضارة منها ، ثم اعتنقت بعد ذلك ديانة المغلوبين

فنرى من ذلك أن بارتولد لا ينكر الدور المهم الذى لعبه الإسلام بين الخزر ، وهو يرى أنه لم يصبح الدين الذى يعتنقه معظم الناس (٤)

أما مصير الإسلام بعد سقوط هذه الدولة ، فقد مر عليه فى ذلك الكتاب مر الكرام ، ولم يفكر فيه . أما ما يتعلق بإسلام الكبشاك بصورة عامة ، فيجد الإنسان فى كتابه المذكور الشىء الكثير من التناقض

(1) W, Bartold, Historie des Turcs d, Asie Centrale, Collection Imitation d, l' Islam. Paris, 194 s ,pp 57, 56

(٢) المصدر نفسه من وجه ١٠٢ ـ ١٠٣

(٣) لعل بارتولد قصد بقوله الشامانيين Shamanists . والشامانية ديانة قبائل سيبريا ، وهى ديانة وثنية تقوم على تعدد الآلهة وعلى الاعتقاد بأن الكهنة يمتلون ما عند هذه الآلهة من جبروت وسلطان . والكلمة منقولة

(٤) كتاب بارتولد السابق وجه ٥٣

وأول ذلك التناقض قوله : « إن قسما من الأوغاز (Oghuzes) (وهم أقوام من الترك سبقوا الكبشاك إلى أوربا الشرقية) الذين استقروا فى مجرى نهر الفولجا الأسفل ، قد اعتنقوا الإسلام أثناء القرن العاشر (٥) » . وأكثر من ذلك ذهابه إلى أن الأتراك الذين استقروا ما بين خورزم والفولجا فى هذه المدة قد اعتنقوا الإسلام أيضا ، ولكن ذلك الإسلام لم ينفذ إلى قلوبهم وإنما كان طلاء وزيفا ، وبقى عدد كبير منهم يمارس المعتقدات الشامانية (٦) . ولا شئ يثير الدهشة فيما ذهب إليه من سطحية إسلام هؤلاء الكبشاك ، لأن الشعوب التى تعتنق ديانة جديدة ولا سيما الرحل منها ، تظل بحكم العادة أقرب فى معتقداتها إلى الديانة القديمة منها إلى الديانة الجديدة . وعلى سبيل المثال ، فقد كان ذلك ، كما هو معروف فى التاريخ ، شأن قسم من القبائل الروسية حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، وربما بعد هذا التاريخ . ولكن الذى يثير الدهشة ، أن يجد المرء فى نفس الوجه من كتاب بارتولد الذى نتحدث عنه زعمين متناقضين ؛ فهو يزعم من جهة « أن المنطقة الواسعة التى استقر فيها الكبشاك ، كانت فى ذلك الوقت ، خارج منطقة النفوذ الاسلامى ، وفى القفقاس اشترك الكبشاك فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فى الهجوم على البلاد الاسلامية » وبعد اسطر غير قليلة يقول : « والمصادر الاسلامية تدلنا بصورة لا تقبل الشك ، أن الكبشاك والقانجلوس Qangluis (من الشعوب التركية وأعلمهم من أبناء عمومة الكبشاك) قد اعتنقوا الاسلام فى القرن الثانى عشر عن طريق صلاتهم مع الخورزميين (٧) »

وفى صفحات سابقة من الكتاب نفسه يقول البروفسور بارتولد : « كان لا يزال فى الشمال الغربى من آسيا عدد كبير من القبائل التركية الرحل ، الذين على الرغم من اتصالهم بالحضارة الاسلامية ، كانوا يحملون العداء للدين الاسلامى . ونجح الكبشاك فى القرن الحادى عشر فى توسيع مدى هجرتهم حتى وصلوا فى تلك الهجرة إلى تخوم البلدان الاسلامية فى الجنوب ، وأصبحوا جيران الخورزميين (٨)

كيف يمكن تعليل هذا التناقض ؟ :

ليس من اليسير على ، ولا من المبهج لنفسى ، أن أخالف فى الرأى علامة من طراز بارتولد الفذ ، وأشعر وأنا أفعل ذلك بالشئ الكثير من عدم السرور . والذى يشفع لى فى تلك المخالفة وتجرؤى على انتقاد آرائه ، أن النتائج التى يصل إليها علامة عظيم ، إذا لم تدعمها المصادر التى لا مفر من الاستناد إليها (كالتى نحن بصددها) ، فأن فقدان تلك المصادر ، يولد حالة تنحرف بالحقائق عن مجراها الصحيح ، وتدفع الآخرين إلى ذلك الطريق المعهد ، مهملين التعمق فى دراسة المشاكل التى لا يعرف عنها إلا القليل

والذى أراه أن رأى بارتولد فى هذا الأمر ، ينبغى أن يفسر كما يأتى : وقبل كل شئ ينبغى أن نعرف أولا ، أنه كان معنيا أشد العناية بتاريخ أواسط آسيا ، وحينما امتدت الحوادث إلى القسم الغربى من الفولجا ، لم يكن دقيقا فى الإحاطة بها . وثانيا فيما يتصل بالقبائل الكبشاكية التى احتلت مملكة الخزر القديمة ، فيجب أن نفرق بين الجماعات الرحل وغير الرحل منهم ، فإن أولئك الذين امتزجوا بالخزر واستقروا إلى جانبهم ، راحوا يعتنقون الإسلام بالتدريج . وأولئك الذين بقوا على عهدهم الأول من البداوة ، استمروا على وثنيتهم الأولى ، أو كان الإسلام عند الذين اعتنقوه منهم ، ليس غير طلاء خارجى لم ينفذ إلى مواطن الإيمان من نفوسهم

ومما يجعل طريقة إسلام الكبشاك غامضة نوعا ما ، أن المؤرخين من الروس لم يهتموا بهم كثيرا ولا قليلا . وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نذكر أن الأستاذ (ن . بارسوف N.Barsov) صاحب المؤلف الرائع « الجغرافيا التاريخية لروسيا القديمة » كان قد أشار منذ مدة طويلة إلى أن مؤرخى الروس كانوا يكرهون التحدث عن الإسلام أشد الكره ، وأنهم كثيرا ما كانوا — بدافع من بغضهم المتأصل للاسلام — يخلطون بين المسلمين والوثنيين(٩) . ومن الجدير بالذكر أن بعض القبائل الكبشاكية

(٥) بارتولد المصدر السابق وجه ٦٣
(٦) بارتولد المصدر السابق وجه ٦٥
(٧) كتاب بارتولد السابق صفحة ٩١

٨ ـ الكتاب نفسه الصفحات ٨٨ ٨٩
(9) N. Barsov, Sketches on the Russian historical Geography The Geography of the primary nestor's chronicle, 2nd edition Warsaw, 1885 pp. 6-7

التى اتصلت بالروس غالبا ما كانت تعتنق المذهب الأرثوذكسى . وهـذا الكلام يصدق فقط على الكبشاك الرحل ، أما أولئك الذين سكنوا المجارى السفلى لنهر الفلجا فلا أعتقد أنهم اتصلوا أدنى اتصال بالروس

ومن حسن الحظ أن أجد تأييدا لما ذهبت إليه من مؤرخ روسى آخر يدعى ا . يا كوبوفسكى A. Yakubovsky فى كتابه من عصر هؤلاء البرابرة الذهبى نقتطف منه ما يأتى : « إن الغالبية العظمى من الكبشاك عاشت معيشة ارتحالية ، غير أن قسما منهم أخذ يستبدل بهذه الحياة الحياة الزراعية المستقرة تدريجيا (١٠) . « واستولى الكبشاك على الممتلكات الواسعة التى خلفتها المملكة السابقة ، وكان الخزر إذ ذاك يحيون على ضفاف الفولجا حياة زراعية بحتة ، واعتاد هؤلاء الغزاة هـذه الحياة ، ولكنهم راحوا يفقدون لغتهم ومميزاتهم العنصرية . أما الكبشاك الذين استقروا فى مجرى الفولجا الأسفل ، فقد احتفظوا بلغتهم ومميزاتهم العنصرية ، على الرغم من احترافهم الزراعة ، وتحضرهم » (١١)

ويذكر يا كوبوفسكى أن غزو الكبشاك ، لم يوقف التجارة بين حوض الفولجا الأسفل والأقطار الإسلامية ، تلك التجارة التى كانت منتعشة قبل مجيئهم . وبعد ذلك يمضى فى تأييد ماذهبت إليه عن كيفية إسلام الكبشاك حين يقول : « وفى نفس الوقت الذى كانت التجارة آتية من الشرق ، كان الإسلام يسير معها ، مخترقا مدن الفولجا شيئا فشيئا (١٢) . « وأن اعتناق سكان مدن الفولجا الإسلام ، وخاصة المراكز المهمة ، مثل بلغار Bulgar وإتل Itil (عاصمة مملكة الخزر السابقة) ، كان نتيجة للأعمال التبشيرية التى قام بها التجار والصناع » (١٣)

وما أشرت إليه فى هذا المقال من إسلام كبشاك حوض نهر الفولجا الأسفل ، يتفق وما جاء فى كتاب بارتولد عن إسلام برابرة العصر الذهبى . يقول بارتولد : « لقد كان لثقافة العالم الإسلامى العالمية فى ذلك الوقت أثر كبير على إسلام رؤساء الأقوام الذين كانت العقائد المسيحية متغلغلة بينهم ، أكثر من تغلغل الديانة الإسلامية بين الكبشاك . أما الأليانين Allans (أو الأوسيتين اليوم Ossetes) فقد كان يصفهم المؤرخون بأنهم مسيحيون . إلا أن ابن بطوطة الرحالة الإسلامى الشهير قابل فى سراى Saray (وهى عاصمة مملكة البرابرة) ، وتقع فى مجرى الفولجا الأسفل ، قسما من الأليانين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى »

ويصف بعد ذلك بارتولد إسلام بيرك خان Berke شقيق مانوخان Batukhan (مؤسس عصر البرابرة الذهبى) . والذى حكم من ١٢٥٤ — ١٢٦٦ ، واشتهر بتعلقه الشديد بالدين الإسلامى ، يقول بارتولد : « ولم يكن الخان مسلما فحسب ، بل كانت زوجاته وأتباعه مسلمين أيضا . لقد كان لكل أمير ، ولكل زوجة من زوجاته مؤذن وإمام خاص ، وكانت هنالك مدارس لتعليم الصبيان القرآن الكريم » (١٤)

ولقد تم عمل من هذا النوع فى مدى عشرين سنة من استيلاء المغول على حوض نهر الفولجا الأسفل . ولم يكن مثل هذا العمل ممكنا ، لو لم يكن الإسلام منتشرا فى تلك الأماكن قبل مجئ هؤلاء الغزاة الوثنيين

غرفة التجارة : بغداد — على محمد سرطاوى

10 — A: Yakubovsky, la horde d' or, Pairs. 1939, P, 22
11 — Ib, p 24
12 — A YakuboVsky p.24
13 — " " p 31

14 - V Bartold pp 137-138

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحى الرسالة
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك